المحور الرابع: الأنثروبولوجيا التقليدية

المحاضرة 07: الأنثروبولوجيا التقليدية

تمهيد:

تعددت الاتجاهات والتيارات الفكرية التي أثرت في الحقل الأنثروبولوجي، والتي كان الهدف منها دراسة وفهم الإنسان في ماضيه وحاضره من منظور كلي، فكان لها دور كبير في تفسير الظواهر ومختلف الأنماط الثقافية السائدة في المجتمعات البشرية، وفيما يلي سنتناول أهم الاتجاهات التقليدية في الحقل الأنثروبولوجي.

1) موضوعها وهدفها:

الأنثروبولوجيا هي من أقدم العلوم على وجه الأرض، حيث ظهرت عن طريق النظر والتأمل . ويقال أن المؤرخ الإغريقي هيرودوتس والذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد هو " أبو الأنثربولوجيا"، فهو أول من قام بجمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبية (حوالي 50 شعبا)، وتناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم، وم لامحهم الجسمية، وأصولهم السلالية، فقدم وصفا دقيقا لمصر ولأحوال شعبها، وهو صاحب العبارة الشهيرة " مصر هبة النيل"

وقد اهتمت الأنثروبولوجيا التقليدية بدراسة المجتمعات البدائية من خلال التخمينات والتفسيرات النظرية، كما عمدت إلى دمج التحليلات الفلسفية والمنهجيات المقارنة في أبحاثها من أجل دراسة وتحليل الحياة الإنسانية في مواقفها المختلفة.

2) التيارات الأنثروبولوجية الكلاسيكية:

2-1) التيار التطوري:

ظهر التيار النظري التطوري في الحقل الأنثروبولوجي في **القرن 19** حيث استعان علماء الأنثروبولوجيا بالمفهوم البيولوجي للتطور وأسقطوه على المجتمعات الإنسانية، فاعتبروا أن السير الرتيب للمجتمع لا يمكن أن يكون اعتباطيا، أو خاضعا للمسيرات الفردية أو الأهواء أو المصادفات، بل يكون وفق مراحل متعاقبة يحكمها قانون التطور، وبذلك ظهرت نظرية التطور الاجتماعي التي أثرت كثيرا في الحقل الأنثروبولوجي، فماثلت بين المجتمع والكائن الحي في نموه الذي يكون عبر مراحل محددة.

ويهتم التيار التطوري في الأنثروبولوجيا بدراسة **الأصول**، والبحث في البدايات الأولى للنظم مثل: أصل الدين، أصل اللغة، أصل القانون ...، أي أنها تعالج مشكلات الأصول التي صدرت عنها النظم الاجتماعية المختلفة، كما يهتم بـ: **الدراسة التتابعية**، إذ يحاول هذا التيار تتبع نشأة الظواهر الاجتماعية وتغيرها من حالات بدائية ساذجة وبسيطة إلى أخرى معقدة وأكثر تركيبا، ومن حالة التجانس الى التباين، وإيجاد العلل والأسباب التي توضح لنا كيف يحدث التغير في النظم . ومن أمثلة ذلك ما أكده بعض العلماء بأن تطور النظام الاقتصادي للمجتمعات مر بالمراحل التالية:

المحور الرابع: الأنثروبولوجيا التقليدية

المحاضرة 07: الأنثروبولوجيا التقليدية

جمع الطعام – الصيد والرعي – الزراعة – الصناعة

ومن أهم رواد نظرية التطور الاجتماعي في الأنثروبولوجيا الأمريكي **لويس هنري مورجان (1818-1881)** الذي تأثر كثيرا بالتيار التطوري، وتجسدت أهم إسهاماته التي عكست مفهومه عن تطور المجتمعات في كتابه **أنساق روابط الدم والمصاهرة في العائلة الإنسانية** عام **1871**، والذي تناول فيه تاريخ الزواج والعائلة، حيث بين أن كل منهما تطور من **الحالة الأصلية للجنسية الجماعية (الإباحية الجنسية)** إلى **الأسرة الأمومية** ، ثم **الأسرة الأبوية** ، إلى غاية مرحلة المدنية حيث ظهر **الزواج والأسرة الزواجية** ، كما ألف **مورجان** كتاب آخر بعنوان **المجتمع القديم** عام **1877** حاول من خلاله تتبع المراحل التي مرت بها الإنسانية، والتي حددها في: **مرحلة الوحشية** أو **الهمجية، مرحلة البربرية، ومرحلة الحضارة** أو **المدنية**، ثم قسم **مورجان** كل منها الى مراحل فرعية، حيث ترتبط ولادة كل مرحلة باختراع جديد للإنسانية، وذلك وفقا للشكل التالي.

تطور المجتمعات عند لويس هنري مورجان

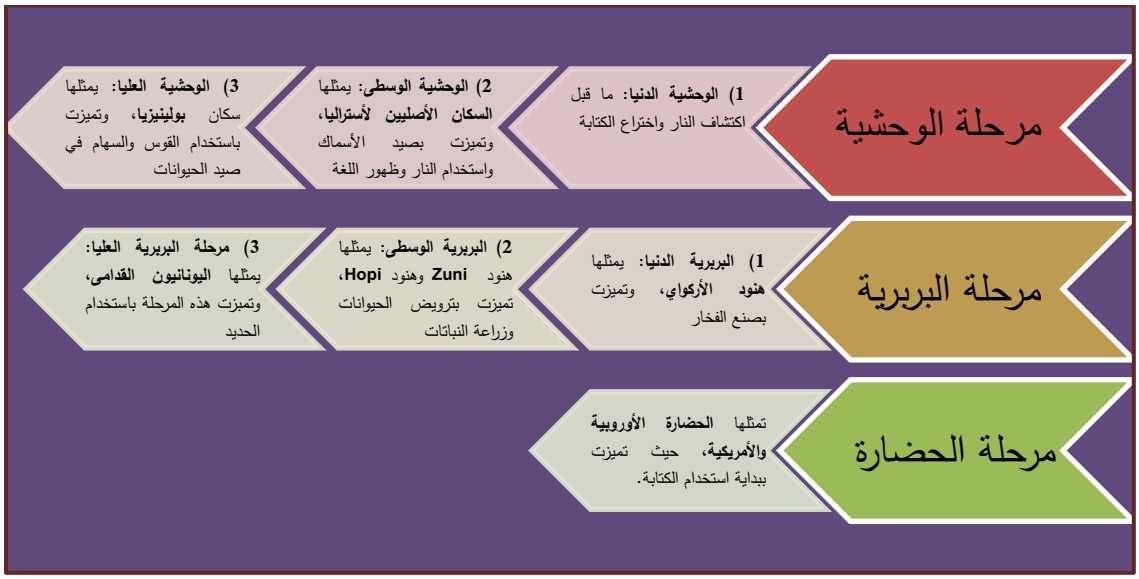

وقد أكد **مورجان** بأن هذا التطور يكون دائما مصحوب بحدوث تغيرات جوهرية في النظم الاجتماعية السائدة كالعائلة ونظام الملكية والحكومة وغيرها.....

- **الانتقادات الموجهة للتيار التطوري:** لاقى التيار التطوري جملة من الانتقادات أهمها:

✓ كشف علماء التاريخ والآثار عن مجتمعات قديمة تطورت وتقدمت دون المرور بتلك المراحل التي افترضها التطوريون، زد على ذلك تجاهل أصحاب هذا التيار لذلك التنوع والاختلاف الثقافي بين المجتمعات والذي لا يمكن له أن يتطور وفق نفس المراحل، وبالتالي فإن ذلك التتابع غير حتمي ، إذ نجد أن سكان **الإسكيمو** في انتقالهم من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة المنظمة قد تطوروا على نحو غير مماثل لمجتمعات الشرق

الأوسط أو مصر مثلا.

✓ لم يعتمد أصحاب هذا التيار على الدراسات الميدانية في أبحاثهم، كما أنهم لم يقدموا الأسانيد والتفسيرات العلمية والأدلة الوافية التي تدعم أفكارهم حول التطور والمرتبطة بالتقدم الحتمي، بل اعتمدوا على معلومات غير دقيقة جمعها الرحالة والمبشرون والتجار إلى جانب التاريخ الظني والتخمين.

2-2) التيار الانتشاري التاريخي (نظرية الانتشار الثقافي):

ظهر هذا التيار في **القرن 19** كردة فعل للاتجاه التطوري، حيث انتقد الانتشاريون ما تم طرحه في إطار نظرية التطور الاجتماعي ، وأكدوا أن حقيقة التقدم تكمن في انتشار السمات الثقافية من مركز ثقافي معين إلى المجتمعات القريبة منه ثم البعيدة مع مرور الوقت؛ وذلك مع توفر مجموعة من الشروط الكفيلة بذلك والممهدة لإحداث التغير الثقافي أو الانتقال من مرحلة الى مرحلة أخرى أكثر تقدما، وبالتالي فقد ركزوا على أهمية **الاتصال الثقافي** أو التفاعل بين الجماعات الاجتماعية والذي يساهم في انتقال السمات الثقافية من مجتمع لآخر . وبناء على هذا الطرح فإن الانتشاريون يرون بأن تماثل النظم الاجتماعية والعادات في مجتمعات مختلفة لم ينشأ عن التطور التلقائي للمجتمعات وفق المراحل التي حددها التطوريون، بل هي نظم وعادات توصل إليها مجتمع معين في مكان ما وذلك خلال مرحلة محددة من تاريخه ثم انتقلت كاملة أو جزء منها الى مجتمعات أخرى مع مرور الوقت.

حيث تقوم نظرية الانتشار الثقافي على مبدأ أساسي هو أنه إذا تساوت كل الظروف الاجتماعية بين مجتمعات متقاربة، فإن عناصر الثقافة ستتبناها أو تستعيرها المجتمعات القريبة من منابعها أو مصادرها الأصلية، ثم تتبناها المجتمعات الأبعد، ويستند هذا المبدأ على الحقيقة التالية: " **إن انتشار أي سمة ثقافية يتطلب وجود عاملين هما: *الإحتكاك* و *الوقت*** " ويمكن توضيح ذلك في الشكل التالي:

طريقة انتشار السمات الثقافية

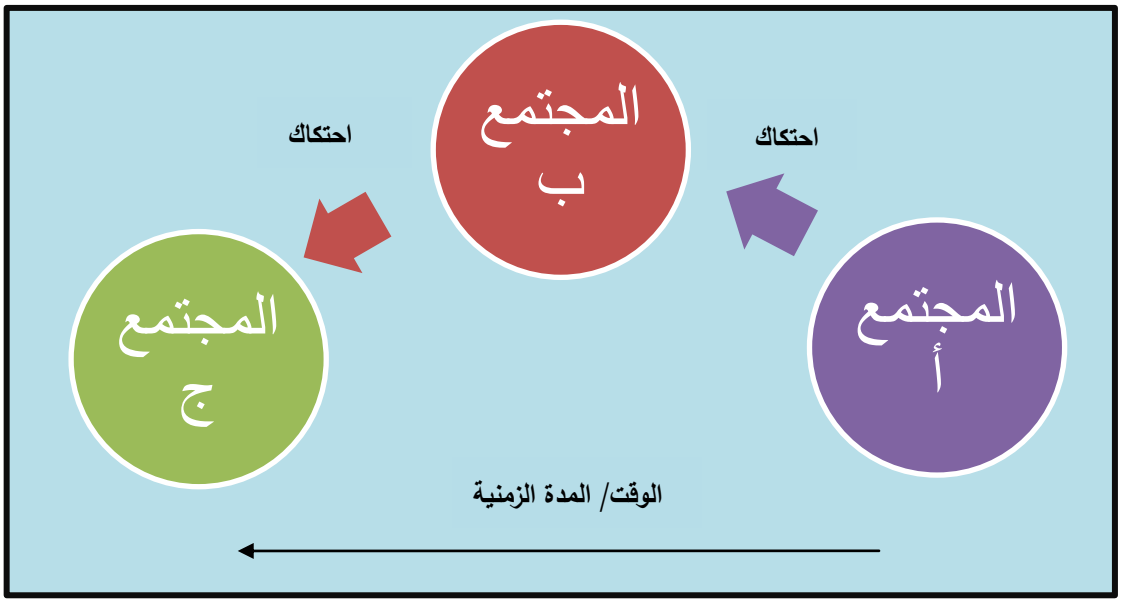

فحسب الشكل أعلاه فإن السمات الثقافية تنتقل من **المجتمع أ** إلى **المجتمع ب** عن طريق الاحتكاك ثم تنتقل بعد ذلك إلى **المجتمع ج** مع مرور الوقت، وبذلك نتوصل الى أن:

- ✓ **المجتمعين أ و ب** بينهما **احتكاك مباشر** وبالتالي **وقت أقصر** لانتشار السمات الثقافية.
- ✓ **المجتمعين أ و ج** بينهما **احتكاك غير مباشر** وبالتالي **وقت أطول** لانتشار السمات الثقافية.

وقد عرف التيار الانتشاري منذ ظهوره ثلاثة مدارس رئيسية هي:

المدرسة البريطانية : يمثلها **إليوت سميث (1871-1931)** و **وليام بيري** و **ريفرز**، ويرى رواد هذه المدرسة أن مركز الحضارة الإنسانية هو مصر التي عرفت الزراعة وبناء الأهرامات منذ 5000 سنة قبل الميلاد ومن ثمة انتقلت الى شعوب أخرى في العالم، ولذلك عرفت هذه المدرسة باسم **مدرسة المصدر الوحيد للثقافة.**

المدرسة النمساوية : يتزعمها كل من **فرتيز جوايبتور (1834-1877)** والأب **ولهم شميدت**، وعالم الدراسات الإنسانية **جريبنر** ، الذين رفضوا فكرة المصدر الوحيد للحضارة الإنسانية واقترحوا وجود دوائر ثقافية متعددة، وليس مركزا حضاريا واحدا.

المدرسة الأمريكية : يمثلها **كلارك ويسلر** و **كروبر** و **كلاكهون**، وتؤيد هذه المدرسة فكرة أن الملامح المميزة لثقافة ما قد وجدت أولا في مركز ثقافي جغرافي محدد ثم انتقلت الى مناطق أخرى في العالم، وإن كانت هذه المدرسة ترى إمكانية وجود تطور موازي مستقل لأن الأفراد مبتكرون بطبعهم.

- **الانتقادات الموجهة للتيار الانتشاري:** لاقى التيار الانتشاري جملة من الانتقادات أهمها:

- ✓ إن التسليم بوجود مصدر وحيد للثقافة كما جاءت به المدرسة البريطانية **يلغي** صفة **الابتكار والإبداع** والتي هي من خواص العقل البشري عن كل المجتمعات؛ ويحصرها في مجتمع واحد باعتباره المنتج للثقافة والمصدر الأول لها ومن ثمة تنتقل إلى المجتمعات والجماعات الاجتماعية في مختلف أنحاء العالم.
- ✓ ركز هذا التيار على مسألة التقليد والربط بين المجتمعات ومسألة التطور، لذلك فقد انتقد بشدة من طرف أصحاب التيارات الأنثروبولوجية الأخرى والذين اعتبروا أن الأفكار التي جاء بها غير سليمة.

2-3) التيار البنائي الوظيفي:

انتقلت الدراسات الأنثروبولوجيا بعد الحرب العالمية الثانية من العام إلى الخاص، أي من دراسة الثقافة أو الحضارة الإنسانية في مجملها الى دراستها في جزئياتها، كوحدات متنوعة لكل منها كيانه الخاص والمميز عن الآخر، سواء من حيث **تكوينه التاريخي** أو **نظمه الاجتماعية**. وقد نشأ التيار البنائي الوظيفي لدراسة الثقافات الإنسانية كردة فعل على نظريات الانتشار الثقافي في كل من أمريكا وأوروبا و على النظرية

التطورية. حيث تميز هذا التيار بأنه ليس تطوريا وليس تاريخيا، إذ ركز على دراسات الثقافات الإنسانية كل على حدا في واقعها وزمنها التي وجدت فيه، فالوظيفية حسب أصحاب هذا التيار ليست دراسة متزامنة وإنما آنية، ولذلك فقد اختلفت كليا عن الدراسات التاريخية التي اعتمد عليها كل من التطوريون والانتشاريون.

إن رفض الوظيفيون للمنهج التاريخي يضمن لهم حسب اعتق ادهم الطريقة العلمية لدراسة الثقافات الإنسانية، فالعلم في نظرهم لا يهتم بتاريخ الظاهرة التي يبحثها بقدر تركيزه على الكشف عن العلاقات القائمة بالفعل بين عناصر تلك الظاهرة ككل، وعلاقتها بغيرها من الظواهر الأخرى . ويعود الفضل في تبلور التيار البنائي الوظيفي في الدراسات الأنثروبولوجية الى أفكار العالمين البريطانيين **برونسيلاف مالينوفسكي** و **راد كليف براون** اللذان استمدا أفكارهما الوظيفية من عالم الاجتماع **إيميل دوركايم** الذي ركز اهتمامه على الطريقة التي تعمل بها المجتمعات الإنسانية ووظائف نظمها الاجتماعية وليس على تاريخ تطور هده المجتمعات والسمات العامة لثقافتها.

فالتيار البنائي الوظيفي يعبر في جملته عن منهج دراسي تم التوصل إليه من خلال المقابلة (الموازنة) بين الجماعات الإنسانية (المجتمعات) والكائنات البشرية (الأفراد)، وقد توصل **مالينوفسكي** إلى أن الأفراد يمكنهم أن ينشئوا لأنفسهم ثقافة خاصة أو أسلوبا معينا في الحياة يضمن لهم إشباع حاجاتهم الأساسية البيولوجية والنفسية والاجتماعية ، ولذلك ربط الثقافة بجوانبها المختلفة المادية الروحية والاجتماعية بالاحتياجات الإنسانية، بل واعتبرها وحدة كلية يمكن تحليلها إلى الأجزاء والنظم المكونة لها، وأخذ العلاقات المتبادلة بين هذه الأجزاء، مع عدم إغفال علاقة ذلك بحاجات الكائن البشري والبيئة الطبيعية والتي هي من صنع الإنسان.

والاهتمام بالبنية كترابط منظم وخفي للعناصر الثقافية يوازيه في اتجاه آخر اهتمام وظائفي بالمعنى الذي يحدده **مالينوفسكي**؛ والذي تعني فيه الوظيفة تلبية حاجة من الحاجات، ويكون فيها التحليل الوظيفي هو ذلك الذي يسمح بتحديد العلاقة بين العمل الثقافي والحاجة عند الإنسان سواء كانت هده الحاجة أولية أو فرعية.

فالثقافة كيان محلي وظيفي متكامل يشابه الكائن الحي، بحيث لا يمكن فهم دور وظيفة كل عضو فيه إلا من خلال معرفة علاقته بأعضاء الجسم الأخرى ، وإن دراسة هده الو ظيفةبالتالي تمكن الباحث الأنثروبولوجي من اكتشاف ماهية كل عنصر وضرورته في هدا الكيان المتكامل . وعليه دعا **مالينوفسكي** إلى دراسة وظيفة كل عنصر ثقافي عن طريق معرفة تكوينه ونشأته، وفي إطار علاقته مع العناصر الأخرى، وهذا يقتضي دراسة الثقافات الإنسانية كل على حدا، وكما هي في وضعها الراهن، وليس كما كانت أو كيف تغيرت، وبدلك يكون **مالينوفسكي** قد قدم مفهوم الوظيفة كأداة منهجية تمكن الباحث الأ نثروبولوجي من إجراء ملاحظاته بطريقة مركزة ومتكاملة في أثناء وصفه للثقافة البدائية.

وإذا انتقلنا الى **راد كيف براون** مؤسس المدرسة البنائية وجدنا أنه قد قام بدور رئيسي في بلورة الفكر البنائي وتدعيمه في الدراسات الأنثروبولوجية منذ بداية **القرن 20**، وفي توجيه الأنثروبولوجية نحو **الدراسات المتزامنة**، والابتعاد عن **الفكر التطوري** بافتراضاته **التاريخية**، إلا أنه يختلف مع **مالينوفسكي** في تفسيره للثقافة في إطار بيولوجي، فقد اتجه **راد كليف براون** نحو دراسة المجتمعات وتفسير الظواهر المختلفة تفسيرا اجتماعيا بنائيا وظيفيا متأثرا بكتابات **إيميل دوركايم**، وانطلاقا من ذلك تصور **براون** أنه كما للجسم الإنساني بناءً أو تركيبا متكاملا؛ فإن للمجتمع أيضا تر كيب أو بناء اجتماعي يتكون من الأفراد الذين يرتبطون ببعضهم البعض، وكل واحد منهم متماسك مع الآخر عن طريق علاقات اجتماعية معينة.

- **الانتقادات الموجهة للتيار البنائي الوظيفي:** لاقى التيار البنائي الوظيفي جملة من الانتقادات أهمها:

✓ إهماله للجانب التطوري للنظم الاجتماعية، والتي هي في تطور وتغير مستمرين.

✓ إغفاله أهمية الجانب التاريخي في فهم تكوين ونشأة المجتمعات.

خلاصة:

تأسيسا على ما تقدم يمكن القول بأن الاهتمام الرئيسي للأنثروبولوجيا التقليدية كان ينصب على دراسة المجتمعات الإنسانية، والإطلاع على ثقافاتها وطرائق تفكيرها وقيمها بغرض امتلاكها واستغلالها وفرض السيطرة عليها، حيث ظهرت عدة تيارات فكرية تحاول تفسير التطور الثقافي لهذه المجتمعات عبر التاريخ البشري، وقد أنتجت هذه الحقبة عددا مهما من البحوث الإنسانية التي تناولت المكتسبات الثقافية والقيمية للشعوب المدروسة، والتي كان لها دور كبير في صياغة الشكل العام للبحث الأنثروبولوجي فيما بعد.

المراجع المعتمدة:

1) مصطفى تيلوين: **مدخل عام في الأنثروبولوجيا**، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2011.

2) فريديريك بارث وآخرون: **الأنثروبولوجيا حقل علمي وأربع مدارس** ، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادر وايمان الوكيلي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2017

3) سفيان ميمون: قراءة في الاتجاهات والنظريات الأساسية في الانثروبولوجيا، الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية، تمت زيارة الموقع بتاريخ :2022/11/13، ع لى الرابط : https://www.politics-dz.com

4) محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا أسس نظرية وتطبيقات علمية**، مؤسسة سجل العرب، 1980